المناهج النقدية الغربية وآفاق تطبيقها على النصوص الأدبية العربية

أ. لخضر سنوسي
جامعة تلمسان

في سياق تطورها عبر مسار تاريخي طويل، قدمت لنا العلوم الإنسانية أدوات مهمة و حديثة لدراسة النص باعتباره المادة الخام للأدب و المنظومة التي حملت لنا الإبداع الأدبي نثرا و شعرا عبر العصور، إذ يعد النص الحقل الأهم والأصل لاستعمال هذه الأدوات والآليات و المناهج الحديثة قصد سبر أغواره والكشف عن أسراره، والتوغل في أعماقه العصية على الدراسة والتمحيص، ولطالما تبعته خلال رحلته في الدراسات اللسانية والنقدية قديما و حديثا وعصرنة ،"ولعل هذه المناهج التي ندرسها تقدم صورة لتطور النقد و مناهجه ، تبعا لتطور العلوم الإنسانية ، وهي تشكل بمجملها تطورا للذوق الجمالي والمعرفة النقدية ".[1]

ولقد كان العمل على هذه المناهج موجها خصيصا لاكتشاف الأبعاد الخفية التي يتضمنها النص، قصد فهمه فهما يظهر قيمته الأدبية واضعا إياه في سياق نظري منسجم مع ما يتضمنه من قراءات مفترضة، أو بهدف إظهار جماليته شكلا و مضمونا، ولنا في ذلك أن ننتقل عبر مختلف النظريات التي تناولت النص ابتداء من الشكلانية الروسية إلى نظريات التلقي و القراءة والتي تنافست في فك شيفرة هذا الكنز الثمين .

لقد كانت النظريات النقدية في إطارها العام تتسم بالتعميم والسعة و الشمول شأنها في ذلك شأن أي نظرية تهدف إلى تفسير ظاهرة قيد الدراسة لإيجاد القواعد الكفيلة بتعميمها تعميما يستطيع أن يشمل كل أوجه النشاط الذي تدرسه، أو الظواهر التي تتناولها. وقد استمدت هذه النظريات النقدية منظوراتها من التاريخ العريض الذي يؤرخ للتفكير النقدي الفلسفي العالمي عبر العصور، بدءا من المحاكاة التي نادى بها أفلاطون وجسدها آرسطو "ومرورا بما أسهم به النقد العربي القديم الممتد من القرن الثاني الهجري وحتى الثامن الهجري ، وانطلاقا إلى النقد الرومنسي الذي تمثل في نظرية الخيال لدى الناقد الانجليزي (كولردج) ، و النظرية التعبيرية عند الناقد الإيطالي (بندتو كروتشه)، وإنتهاء – وليس إنهاء– بالمناهج النقدية الحديثة التي شكلت في مجموعها و من خلال إفادتها مما سبقها ما سمي بالنظرية النقدية العالمية ".[2]

من خلال هذا كله نستشف الاتفاق العالمي أو الانطباعي على نشأة واهتمام المبدعين بالنقد والنصوص قديما وحديثا عند العرب و الغرب على حد سواء .

فالمناهج النقدية كانت في نشأتها وليدة النقد والتفكير النقدي، وحركة النقد في شكلها العام بدأت معه وواصلت تطورها إزاءه تراقبه وتسايره عبر العصور، والمناهج النقدية جزء من تاريخ حركة النقد وتطورها.

ولنا أن نأخذ كمثال على ذلك البنيوية التي أسهم في نشأتها وتبلورها لغويون ونقاد وفلاسفة من مختلف الجنسيات والأقطار، فدوسوسير "يعتبر مفتاحا مهما من مفاتيح الفكر اللساني الحديث في الغرب وعند العرب أيضا ، فلم يقتصر تأثيره على الفكر اللساني فحسب بل امتد إلى البحث النقدي الذي هو مدين بشكل قاطع إلى التطورات الأساسية التي وضعها (دوسوسير) بل امتد كذلك إلى التأثير في مناهج البحث في العلوم الإنسانية بصفة عامة"[3].

فلا جرم أن نجد جهود (ديسوسير) ذات طابع عالمي تعدى الجغرافية في منهجه و عالميته الأدبية والإبداعية من خلال تأثيره على مناهج البحث في العلوم الإنسانية، فالبنيوية قدمت للنقد وخاصة النص جهودا معتبرة لا يمكن إغفالها أو تناسيها رغم اقتصارها على الجملة و لم تتعد إلى النص الذي أصبح نواة البحث النقدي و مناهجه و في هذا الصدد يعقب الأستاذ بشير إبرير عن هذا بقوله "و إني لأذهب إلى أن (دوسوسير) و كتابه محاضرات في اللسانيات العامة في الفكر اللغوي الغربي بمثابة (سيبويه) وكتابه (الكتاب) في البحث اللغوي العربي القديم إن جازت هذه المشابهة"[4].

و هكذا نشأت هذه المناهج النقدية المعاصرة مسايرة في تطورها للإبداع الأدبي و كأنها الرقيب الملازم له وبشكل خاص كان اهتمامها بـــ "النص" الذي شكل همها في البحث و موضوعها في الدراسة وهدفها الأساسي الذي تبني عليه خطواتها حين تبلورها وأثناء تطورها، من البنيوية إلى المنهج الأسلوبي و السيميائي و الإحصائي والموضوعاتي و التفكيكي تحت مسمى مدرسة النقد الجديد.

وقد تواتر مصطلح النقد الجديد ليكون عنوانا للمناهج النسقية الجديدة المتمثلة في المناهج النقدية المعاصرة سالفة الذكر، والتي هيمنت على الساحة الفرنسية النقدية مع مطلع سنوات الستينات تقريبا بحيث كان ظهورها في سياق مواجهة بعض الاتجاهات الوجدانية الذاتية (الانطباعية) والتاريخية التي طغت على مضمون النص وشكله وغمرته بما لا يعنيه وألزمته بما ليس منه.

ولهذا كان حريا بالمناهج الجديدة أن تقدم أسسا وخصائص منهجية عامة لدراسة النص، تختلف منهجا وأسلوبا عن غيرها، هذه المناهج التي شكلت ثورة أقصت المناهج القديمة عن سلطتها النقدية التي مارستها لعقود من الزمن على النص، فغمطته حقه وأمعنت في تحويره وما يتماشى مع أساليبها التي أبعدته في الغالب عن حقيقته مقحمة قواعدها عليه، ومن بين أهم المبادئ التي ينهض النقد الجديد عليها والتي خرجت عن المألوف في هذا المجال هي أن تتم "دراسة النص الأدبي بعد اقتلاعه من محيطه السياقي ، فمن النص الانطلاق و إليه الوصول دون اعتبار بقصدية الناص ووجدانية المتلقي و هو ما أجمله (ويليام ويمزات) و (مونرو بيدزلي) في مقولتي المغالطة القصدية 1946 و المغالطة التأثيرية 1949 اللتين صاغاها في كتابهما المشترك (الأيقونة اللفظية) 1954، وهما مغالطتان يجب حماية النقد الموضوعي من خطرهما لأنهما تعكسان شغف النقد الجديد بالنص الأدبي كشيء"[5].

وأن يتم أيضا الاهتمام بالطبيعة العضوية للنص الأدبي ودراسته بوصفه وحدة عضوية متجانسة العناصر التي هي مكوناته الداخلية الأساسية، "وأخذ النقد الجديد فكرة العضوية عن الشعراء الرومانسيين و طوروها ، ويؤول مبدأ الشكل العضوي إلى اعتبار النص الأدبي كائنا لغويا (كالكائن النباتي أو كالكائن الحيواني) يمثل بنية كلية متجانسة مستقلة عن الظروف و المؤثرات المحيطة"[6]، و نبذ الالتزام ورفض استخدام الأدب وسيلة لغاية رسالية معينة (اجتماعية- سياسية- أخلاقية).

ومن خلال ما تقدم عن المناهج النقدية و كيف ظهرت في جملتها وتطورها عبر التاريخ يستطيع دارس النظرية النقدية المعاصرة أن يصنفها ويضعها في أربع مداخل :

01- المناهج الخارجية : أو السياقية هي التي نظرت إلى النص و فحصته من خلال إطاره التاريخي أو الاجتماعي أو النفسي ، وتؤكد على السياق العام لمؤلفه أو مرجعيته النفسية و مداه التاريخي الاجتماعي النفسي، والدخول إلى النصوص من خلال تلك السياقات المحيطة بالمبدع.

02-المناهج الداخلية : و التي قاربت النصوص دون الالتفات إلى المرجعيات الخارجية السابقة، مع النظر إلى النص باعتباره بنية لغوية و جمالية مكتفية بذاتها، أي (فتح النص على نفسه و غلقه أمام المرجعيات)،و منها النقد الشكلاني الروسي والنقد الجديد و الاتجاهات الأسلوبية إلى حد ما .

03-البنيوية : وهي كما عُبر عنه "المشروع الأساسي الذي أفرزته الحداثة"[7] ومقدماتها الشكلانية الروسية و النقد الجديد.

04- مناهج القراءة و التأويل و التلقي : يرى صلاح فضل "أن منشأ هذه التوجهات لم يكن متساوقا من الناحية التاريخية ، و إنما برزت في إشكاليات التأويل أولا وتبلورت في عمليات الاعتداد بأنواع معينة من القراءة يقوم بها من يطلق عليهم (القراء النموذجيون) قبل أن يتم إلقاء الضوء بصفة أساسية على جماليات التلقي أو طبيعة الاستقبال الأدبي وعلاقته بإنشاء الدلالة النصية لها وليس منبثقا عنها"[8]. وبعد ذلك يعقب "جاء هذا التيار ليستكمل ما أهملته البنيوية ....وينقل مركز الثقل من استراتيجية التحليل من جانب المؤلف إلى جانب النص – القارئ"[9].

إنها إعادة للعلاقة القائمة بين النص والمتلقي في ما يشبه تبادل الأدوار وعملية تفاعل، تستنفذ المناهج أساليبها لتحديد نوع هذا التفاعل ومستلزماته الأساسية وتحليله إلى معطياته الأولية في شكل آليات لها قواعد تفرضها الوجهة النظرية لهذه المناهج ، والتي تنصب دائما حول النص، "فمناهج القراءة إذن منحت القارئ و النص فرصة التقاء ثقافتيهما وأولت القارئ جل عنايتها في تلقي النص".[10]

وهذه المناهج النقدية المعاصرة تصب كلها في مصب واحد من بداياتها مع البنيوية التي اهتمت بالنص كنص بعيدا عن سياقاته الخارجية، أو مناهج ما بعد البنيوية كالتفكيكية، و السيميولوجية و نظريات التلقي و التأويل والهيرمونوطيقا تحت عنوان مناهج القراءة ، والجمع بين هذه المناهج تحت عنوان واحد يمثل أن ما يجمع بينها على اختلافها في الخلفيات الفكرية و الفلسفية هو منحها القارئ و النص فرصة لقاء بهما على الرغم من اختلاف طرائق الوصول إلى الدلالة لدى كل منهج من هذه المناهج.

يلاحظ الدارس لملابسات نشوء المناهج النقدية المعاصرة والمتناول لتطورها عبر رحلتها الطويلة، حتى أصبحت على ماهي عليه الآن، التأثيرات الواضحة لطبيعة اللغات الأجنبية الغربية في بلورت قواعدها وأساليبها النقدية وكذلك التأثير المباشر للفكر الفلسفي عبر مدارسه المختلفة من أفلاطون إلى جون ميشال آدام ، والذي يعتبر أهم من درس النص وحدد أنواعه وخصص كتبا عن كل نوع مثل : النص الوصفي السردي و الحجاجي .

هذا التطور لم ينته بعد، بل أصبحت وتيرته متسارعة جدا مع تعدد المدارس النقدية وتشعبها إلى تفريعات حول مسائل كان جزئية ، فأضحت عناوين كبيرة لإشكاليات جديدة، هذا التشعب والتفرع كان نتيجة التضارب بين

الآراء والأفكار التي ظهرت مع إلحاح الحاجة إلى نظرية أدبية منسجمة متكاملة تسعى لإنتاج قوالب نصية متسقة ومنظورات الأدب المختلفة.

لقد كان الصراع بين وجهات نظر المناهج على اختلافها محتدما حول نقاط أساسية حينا وهامشية حينا آخر، كما أنه كان ضروريا من أجل تجاوز أي نقص والسعي إلى إعادة التشكل في لباس جديد أكثر شمولا وأقوى أسلوبا، فكل منهج كان يسعى لتجاوز بقية المناهج في استغلال سلبياته و الإفادة من إيجابياته ، فظهور النقد الجديد كان في سياق مواجهة بعض الاتجاهات الوجدانية الذاتية (الانطباعية و الوثائقية (التاريخية) التي غمرت النص الأدبي بما ليس منه ثم مناهج ما بعد البنيوية التي حاولت رد الاعتبار للنص ، بل توسعت إلى القارئ و أشركته مع المبدع في نصه من خلال نظريات القراءة و التلقي والتأويل، هذا الصراع الذي طبع حركة تطور المناهج قد ساهم إلى حد كبير في تنويعها وتوسيع آفاقها ، وفتح مداركها على مجالات عديدة في العلوم الإنسانية والاجتماعية والفلسفة وتنويع مصادرها.

وقد اتخذت حركة التطور الحاصل في المناهج النقدية المعاصرة من الرقعة الجغرافية التي يمتد عليها الغرب بمختلف اتجاهاته وأعراقه مسرحا لها، فقد كانت هذه المناهج في شكلها العام إنتاجا غربيا بامتياز، وكانت مشاربها مرتبطة بتراثه وتاريخه وأهدافها متعلقة بأهدافه وتطلعاته، وموضوعاتها مستقاة من منتوجه الذي تميز عن أي منتوج بأصالته ومصادره وأبعاده الموغلة في الحضارة الغربية المعاصرة.

هذا الارتباط الواضح والجلي بين المناهج النقدية المعاصرة وبين الغرب حتم علينا تسميتها بالمناهج النقدية الغربية، فهي ليست عربية بالأساس، كما أنه لسبب أو لآخر ليس تحصيل حاصل تطبيقها في النقد العربي المعاصر سواء على منتوج أدبي عربي خالص أو نص ذو قيمة أدبية في بيئة عربية، فالموضوع يحتاج إلى الكثير من الترو والنقاش قبل الإقدام على تطبيق هذه المناهج على النصوص الأدبية العربية أو حتى الإفادة منها في ما يحتاجه النقد العربي من أدوات لممارسة دوره النقدي المنوط به.

وبعد كل ما تقدم لنا أن نطرح جملة من الأسئلة والإشكالات تفرض قوتها في أذهان غير المختصين فضلا عن أهل الاختصاص من المهتمين بالنقد العربي وآفاقه وهي :

1- ما موقف الأدب و النقد العربيين من خلال هذا التطور التاريخي لهذه المناهج في الغرب من بداياتها إلى يومنا هذا قديما و حديثا و عصرنة ؟

2- كيف أثرت هذه المناهج في الأدب العربي ايجابا أو سلبا؟

3- هل يمكن إنشاء مناهج نقدية عربية تناسب اللغة العربية باعتبارها لغة نصوص مبدعيها و تراثهم الأساسية ؟

4- هل تفطن قدماؤنا إلى قيمة النص الأدبي و كيف اهتموا به و بدراسته، و هل نعتبر المناهج الغربية النقدية مجرد اختلاف في المصطلحات فقط في تراثنا الأدبي و النقدي خاصة عند القدماء؟

كان نقاد الجاهلية في أيامهم يطلقون أحكاما متنوعة على الشعر، تتناول الشاعر و القصيدة جملة أو بيتا مفردا ومنها تخصيص أسماء يمكن اعتبارها نقدية من منطلق تمعنهم للقصيدة و ألفاظها و أسرارها بحكم سليقيتهم

اللغوية الكامنة في دواخلهم العميقة، كالمهلهل لأنه هلهل الشعر و النابغة لنبوغه و المرقش لتحسينه الشعر و تنميقه ،هذا الاهتمام بالشعر رددته أيضا كتب الأدب فأصدرت أحكاما جمالية و أساليبا انطبعت على اصحابها و على إبداعاتهم الشعرية و كأنها الأسلوبية في ثوب آخر ، تطورت إلى أسلوبية اليوم و منها ما توصلت إلى" احكام تفصيلية مثل قولهم :كفاك الشعراء أربعة : زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب و الأعشى إذا طرب ".[11]

فظاهرة الذوق الأدبي من أهم ظواهر النقد العربي وحتى في الغرب، فقد كان لها تأثير قوي في التراث الأدبي العربي، وأول ظاهرة نطالعها في القرنين 2هـ و3هـ حرْصُ اللغويين والرواة على تتبع كلام العرب لاستنباط قواعد اللغة والنحو، الأمر الذي جرهم بالضرورة إلى نقد الشعر من حيث مخالفته للأصول التي تقررت عندهم بحكم ثقافتهم، ومع هذا لم يكن همهم منصبا على نقد الشعر من حيث ضبطه و إعرابه و فساد معناه فحسب، كما ركزت في ذلك البنيوية بل تجاوز النقاد القدماء ذلك بالجمع بين اللغة وعناصر الجمال في الأدب ومكان الروعة منه، فقد كانت لهم آراء صائبة ونظرات ناقدة تعتمد على الذوق ومواطن الجمال في الشعر، وهذا يحيلنا أيضا إلى مبادئ الأسلوبية اليوم.

يرى شوقي ضيف في سياق تصويره للنقد العربي وتطوره فيما مضى بقوله: "هذه هي صورة النقد العربي في عصوره الماضية ينشأ ساذجا ثم يتطور حيا ثم يجمد و يفقد كل ما كان له من بهجة وجمال".[12]، فشوقي ضيف من خلال كتابه (النقد) يصور لنا تاريخ النقد العربي القديم بمراحله التي مر بها من طور النشأة في العصر الجاهلي ثم الإسلامي أنه النقد الانطباعي غير المعلل.

ثم في فترة التطور العباسي التي تحول النقد فيها إلى نقد فلسفي مقارن يرتكز في إجراءاته على علوم البلاغة إذ نلمس ذلك من خلال المؤلفات التي ألفت في هذا العصر الفريد من نوعه ق2هـ،3هـ، و التي تضمنت آراء نقدية هامة جدا بل آراء لمناهج غربية معاصرة في النقد الأدبي مبثوثة في أصول التراث العربي النقدي و أهم هذه المصنفات :

مصنفات ذات **دراسات منهجية تأصيلية للنقد** كالبيان و التبيين للجاحظ ، و نقد الشعر لقدامة بن جعفر والبرهان في وجود البيان ، **ودراسات لبعض المتكلمين** كالنكت في إعجاز القرآن للرماني، و إعجاز القرآن للباقلاني، و أيضا **دراسات نقدية على أسس بلاغية** كالموازنة بين ابي تمام و البحتري للآمدي، و الوساطة بين المتنبي وخصومه،كما أننا نجد **دراسات لبعض المتأدبين كا**لصناعتين للعسكري، و العمدة في صناعة الشعر ونقده للقيرواني، وسر الفصاحة للخفاجي.

ثم ازدهار الدراسات البلاغية التي اشتملت على أسس جديدة قد تعتمد عليها المناهج النقدية معاصرة كنظرية النظم عند الجرجاني ، ثم التقعيد لهذه القواعد من خلال عمل السكاكي في كتابه المفتاح، حيث يرى شوقي ضيف أن هذه الفترة هي فترة تحول البلاغة إلى قواعد جافة.[13]

و في آخر كتابه (البلاغة تاريخ و تطور) يعقد شوقي ضيف مقارنة صغيرة بين البلاغة العربية والغربية فيقول في هذا السياق "من يقرن مباحث البلاغة العربية إلى مباحث البلاغة الغربية يلاحظ توا أن الغربيين عنوا في

بلاغتهم بدراسة الأساليب والفنون الأدبية، بينما لم يكد يعنى بهذا الجانب أسلافنا إذ صبوا عنايتهم على الكلمة والجملة والصورة "[14].

ويلمح شوقي ضيف إلى الأسلوبية و ما جاءت به من تجاوزها لمستوى الجملة في البلاغة إلى مستوى النص، ويكاد يقول أن البلاغة العربية وقفت أمام جدار أو عجزت عن تجاوز الجملة إلى النص، لكن يمكن القول أن الجملة في اللغة العربية غير الجملة في المفهوم الغربي، فطبيعة العربية وقوتها أغنت البلاغة العربية والبلاغيين العرب القدامى عن تجاوز الجملة إلى النص، حيث تؤدي الجملة العربية جمالا يختلف عن ما تؤديه أساليب الجملة الغربية، وهذا ما أثاره الجرجاني من خلال كتابه : دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة في فكرة النظم لديه، و هذا رأينا و قد يحتمل الصواب أو الخطأ.

من خلال ما تقدم نرى أن النقاد المحدثون عزفوا عن التراث إلى غيره، وراحوا يبحثون عن تحليل الإبداع الأدبي وصوره الجمالية على ضوء نظرة غربية جديدة ظهرت من خلال اللسانيات الحديثة والمناهج النقدية الغربية، و ذلك ربما لانبهارهم بها من خلال بعثاتهم العلمية هناك .فأقحموها داخل نصوصنا ولغتنا العربية الجميلة.

في معرض حديثه عن المناهج النقدية المعاصرة وتوظيفها في النقد العربي يقوم الدكتور صلاح فضل بنبذة رائعة عن هذه المناهج النقدية المعاصرة و كيف تبناها أدباؤنا و نقادنا في العصر الحديث، فيقول: "لنحاول إلقاء نظرة كلية على حصاد القرن الأخير في الحركة النقدية العربية، و لعل النموذج الذي يسمح لنا باستجلاء خطوطه الكبرى أن يكون هو النموذج المهجري في الدراسات الأدبية، مع أنه لم يأخذ حقه لدينا في التحليل و التنمية و البحث والتفلسف، كما أخذه في الأدبيات الغربية و هو نموذج الأجيال "[15].

ويعقب محاولا تصنيف جيل النقاد العرب في القرن العشرين مصطلحا بذلك على توزيع نقدي يراه مناسبا حسب دراسته فيقول:" ومعنى ذلك أن القرن العشرين يمكن توزيعه نقديا على ثلاثة أجيال تناوبت أداء رسالتها خلاله، وتعددت اتجاهاتها بطوله..."[16].

جيل الأساتذة هكذا عرفه صلاح فضل : جيل الرواد الذين ولدوا حول العقد الأخير من القرن 19م حيث شهد عام1889م على وجه التحديد معظمهم : طه حسين- العقاد- ميخائيل نعيمة وقبلهم عبد الرحمن شكري – أحمد أمين ومن بعدهم : ابراهيم المازني و عبد القادر المازني – وزكي مبارك وأمين الخولي، وربما كان عقد العشرينات من القرن 20م هو الذي شهد انبثاق توجههم الفكري .

"قدم طه حسين مفهومه الجديد للأدب باعتبار ما يثار عن الشعر و النثر و ما يتصل بهما لتفسيرهما ، والدلالة على مواضع الجمال الفني فيهما".[17]، فطه حسين كان يمزج إذن بين النقد و تاريخ الأدب ، لكنه لا يلبث أن يطور هذه المفاهيم في دراساته اللاحقة غير أن اعتماده في النقد والتحليل ظل ينصب على تشكيل مزاج وسيط يجمع بين البحث الموضوعي، و الانطباع الذاتي المعتمد على الذوق الشخصي، فالعملية النقدية كما يصفها متبعا منهج أستاذه "لانسون" تمر بمراحل من اكتشاف النص و تحقيقه وقراءته وتحليله"[18]، نلاحظ فكرة القراءة و التلقي تظهر في كلام صلاح فضل من خلال منهج طه حسين فالناقد قد لا يستحسن قصيدة

من شعر أبي نواس مثلا إلا إذا لاءمت نفسه ووافقت عاطفته وهواه، أي لابد أن يتماهى مع الإبداع الذي يقدمه، ويرى صلاح فضل أن طه حسين كان رمزا للعقل النقدي الجديد.

ثم يأتي العقاد ومحاربته لأحمد شوقي حيث قاد أعنف حملة نقدية ثورية في مطلع القرن العشرين لتفسير مفهوم الشعر وتحويل وظائف الأدب ، وظل يزهو بفكره و شعره الفلسفي الذي لم يدخل في الضمير الأدبي لقراءة العربية، وغير مكترث بالرواية باعتبارها قنطارا من الخشب."ولم يكد ينتصف القرن 20 حتى كانت دورة التطور قد وضعته على رأس محاربي التجديد الذي دعا إليه في شبابه...".[19]

ثم يأتي بعد ذلك ميخائيل نعيمة الذي رأى أن الأدب لابد له من حاجات أساسية أهمها:

1- الحاجة إلى الإفصاح عما ينتابنا من العوامل النفسية و الانفعالات و التأثيرات.
2- الحاجة إلى الحقيقة و الجمال و المنطق.
3- الحاجة إلى الموسيقى.

لتأتي بعد ذلك فترة نقاد الأدب أي أبناء الجيل الوسط كما سماها صلاح فضل، ويعتبر محمد مندور حامل لواء هذا الجيل، ولويس عوض، و حسين مروة- و أنور المعداوي- و نازك الملائكة. ويتضمن عددا من أبرز الأساتذة المشتغلين بتاريخ الأدب العربي و النقد: شوقي ضيف - إحسان عباس- محمد النويهي غنيمي هلال- و عبد القادر القط – و شكري عياد..

إن أبرز مسؤوليات هذا الجيل في فصل النقد واستقلاله عن البحوث والدراسات الأدبية، والدخول به أحيانا إلى حلبة الصراعات المنهجية، ومتابعة الإنتاج الحي للمبدعين الجدد، و الوعي العميق بطبيعة تشكيل المدارس والاتجاهات في الشرق و الغرب.

وأهمهم مندور الذي راح يدعو إلى ما يسميه (المنهج الأيدلوجي في النقد) لمناصرة قضايا أدبية وفنية كبيرة، مثل قضية الفن للحياة والالتزام في الأدب والفن بحيث تصبح وظائف النقد في تقديره كما يلي :

1- تفسير الأعمال الأدبية و الفنية و تحليلها لمساعدة عامة القراء على فهمها.
2- تقييم العمل الأدبي و الفني في مستوياته المختلفة في مضمونه و شكله الفني.

كما لا تخلو الساحة الفنية النقدية على غرار ما في الساحة الغربية من صراعات ومعارك أدبية نقدية أهمها : بين العقاد و شوقي سابقا و محمد مندور و رشاد رشدي الذي كان يمثل دعاة الفن للفن في ظاهر الأمر، بينما كان يعمل على ربط عجلة النقد بالسلطة ، والفن بالحكومة، في مقابل النقاد الفرسان المدافعين عن الحرية و الإبداع، "كما كانت هناك معارك بين فصائل الواقعيين أنفسهم باتجاهاتهم المختلفة كما حدث مع لويس عوض و محمود أمين وحسين مروة لكن فريق الأساتذة البعيدين عن الصحافة كانوا يميلون إلى الصمت و التأمل في حركة النقد، وكانوا أيضا أشد ميلا إلى إثراء حقل الدراسات الأدبية و الأدب المقارن و تاريخ النظريات الأدبية بالبحوث و الكتب المنهجية المطولة وإعادة طرح قضايا الفكر الادبي في ضوء المتغيرات العالمية "[20].

لقد كانت حركة النقد قد امتدت عند منتصف القرن 20م لتشمل عواصم عربية عديدة أصبحت مراكز جديدة يشتغل فيها الأدب لهيب الإبداع وتتعدد المؤسسات الجامعية والأدبية التي تغذي الفكر، فأخذت مشاركة المرأة تظهر و تبرز بشكل لافت ، وكان النص الشعري أبرز تجليات هذا الظهور من خلال نموذج (نازك الملائكة). فدعت إلى الشعر الحر فكانت من المبدعين فيه والمنظرين له نقدا وتقعيدا فهي تنبه في نهاية كتابها عن (قضايا الشعر العربي المعاصر) إلى مزالق النقد الذي تراه فنا ناشئا في آدابنا العربية المعاصرة ، حيث تنقصه الأسس التي يرتكز إليها في أحكامه و يعوزه التركيز والرصانة، فهي ترى أن النقد يسير على غير هدى و سيضيع جهودا كثيرة حتى يهتدي إلى الأسس التي ستوجهه حتى تنشأ فيه النظريات و المدارس و المذاهب التي تستند إلى أدبنا المحلي دون ارتكاز إلى نظريات النقد الاوروبي .

إن نقاد الحداثة ومعظمهم من نقاد البنيوية و ما بعدها، بتجلياتها المختلفة من توليدية و أسلوبية و شكلانية وتفكيكية و سيميولوجية و قراءة و تأويل .مع وجود عدد من النقاد الذين يقعون على الحواف المتصلة أو الواصلة بين الجيلين من ناحية والمازجة بين الاتجاهات الحداثية وما قبلها من ناحية أخرى فإن هؤلاء ينتشرون و بشكل قوي بحيث نجدهم يتوزعون مكانيا بين مراكز الانتاج النقدي القديمة في مصر والشام والعراق، وبين مراكز أخرى تشكلت و نشطت في النصف الثاني من القرن 20 م وأسهمت بقوة في حركة النقد العربي من الشمال الإفريقي والمهاجر الغربية الجديدة . فقد تأثروا كثيرا بمناهج الغرب المعاصرة تنظيرا وتطبيقا وترجمة ، واستوعبوا بقايا المعطيات السابقة و اللاحقة الغربية و حاولوا بذلك تطوير الخطاب النقدي العربي الأدبي معتمدين على التركيب بين المتجانس من التيارات المختلفة والنمذجة المؤلفة بين المناهج المتعددة والإنجاز المتميز في صلب الثقافة العربية .

يرى صلاح فضل أنه"من الطريف ملاحظة المفارقة البارزة بين عنف الصدمة التي أحدثتها قطيعتهم المتفاوتة الدرجات مع تيارات النقد القديم مع جدة مصطلحاتهم ورفاهة أساليبهم النقدية وبين الأثر القوي الذي أحدثوه على الرافضين لهم بصفة خاصة "[21]. فنرى أن تأثير المناهج النقدية المعاصرة على هذا الجيل واضحا ، و إن ظهر هذا التأثير بصورة باهتة فيما قبلهم من رواد الجيل الأول من النقاد ، وإذا حاولنا إيجاز الوظائف النقدية التي استهدفها أبناء هذا الجيل يمكن أن نبرزها في إحداث نقلة معرفية حاسمة في النقد الأدبي باعتماده على الأسس الألسنية في النقد الادبي العربي .بعدما كان طاغيا على الخطاب النقدي سابقا، و الاعتماد على التنظيم المنهجي الدقيق لمقاربة النصوص بطريقة علمية من خلال ما نراه في علم النص أو تحليل الخطاب ولسانيات النص ،"مما يخفف من غربة القارئ و يلطف من درجة التخصص العالية في التحليل النقدي "[22].

لكن نجد أن هذه التيارات والمناهج أوجدت شرخا كبيرا بين القارئ العربي و المبدع ، حيث العقلية العربية تنفر مما هو غريب عليها حتى على طلاب الجامعة المتخصصين في الأدب لما تؤديه هذه المناهج من غربة ونفور داخل النصوص ومحاولة تحليلها، يقول جابر عصفور "لا شك في أن البنيوية قد فرضت نفسها على الفكر العربي المعاصر بطريقة أو بأخرى في السنوات الأخيرة، فأصبح لها خصومها وأنصارها وأثارها اللافتة في مجال العلوم الإنسانية".[23]

أصبحت هذه المناهج موضة يتناقلها النقاد عبر تحليلاتهم وتنظيراتهم من البنيوية إلى نظرية القراءة و التلقي، وربما ابتعدنا كثيرا عن روح النقد و انصب اهتمامنا على التنظير لهذه المناهج والتيارات وجعلنها أهدافا لا وسائل ، ونسي بعض النقاد أن الهدف الأسمى للنقد والأدب هو الإبداع الأدبي وإظهار جمالياته والكشف عن أسرار النصوص تراثا كان أم جديدا.

فقد تأثر النقد العربي بالغرب وحاول العرب تجديد المناهج النقدية الأدبية عن طريق اتصالهم الوثيق بالثقافة الغربية، وبعد هذا الاتصال أدركوا أن للنقد أصولا وقواعد فنية فأدخلوا تلك القواعد و الفنون إلى الأدب العربي و نقده، فتأثرت اكبر مدرسة نقدية أدبية عربية هي مدرسة الديوان بذلك مما أحدث أثرا عميقا في الشعر العربي المعاصر ،وربما منهم من نجح في ذلك غير أن الكثير منهم فشل رغم موهبته وإبداعاته.

فالنقاد العرب اليوم في اتصالهم بالثقافة الغربية عليهم أن لا يغفلوا القيم العربية والتراثية ، و أن يبذلوا الجهد الجهيد في تطوير التراث أو يعيدون قراءته من جديد وقراءة المناهج النقدية المعاصرة من جديد مع الأخذ ما يليق بنا و ترك ما لا يليق و يتماشى مع إبداعات أجدادنا القيمة التي مازالت فيه الأسرار والأسرار، محاولين إيجاد منهج يتلاءم مع طبيع اللغة العربية و علومها ومع المناهج التراثية القديمة و لا بأس من الإستعانة بالمناهج الغربية لكن بتمعن جيد وتفحص دقيق.

و أول من تصدر لهذا البحث ربما محاولا إيجاد منهج في رحلة البحث عنه، هو الشيخ المحقق محمود شاكر بعد أن رفض أكثر المناهج الأدبية و السياسية و الاجتماعية و غيرها ، حيث يقول هو على نفسه في هذه الرحلة :"طويت كل نفسي على عزيمة حذاء ماضية : أن أبدأ وحيدا منفردا رحلة طويلة جدا و شاقة جدا و مثيرة جدا، بدأت بإعادة قراءة الشعر العربي كله"[24]، وهو ما سماه بمنهج التذوق في تحليل الخطاب، فقد رفض محمود شاكر أكثر المناهج الأدبية السائدة في عصره، ومضى في رحلته الطويلة للبحث عن المنهج فكان هذا المنهج الذي ارتضاه و احتفى به و انتشى باكتشافه .وسماه منهج "التذوق".[25]

تأثر النقد العربي المعاصر بمباحث النقد الغربي نتيجة اتصال العرب بالآداب الغربية، وكأن الأدب العربي كان يعيش حالة المنتظر و المشاهد لم يحدث في الآداب العالمية من تطورات وتغييرات وصراعات ، بين هذه المناهج و النظريات فلما استوفى الغرب هذا كله راح نقادنا العرب يطبقون هاته المناهج على النصوص العربية منبهرين بها دون مراعاة لخصوصية اللغة العربية وأدبنا العربي العريق ، قاطعين صلة الرحم بين التراث و كأنه قديم ؟ لا يصلح لا للقراءة ولا للبحث وانغمسوا في التنظير و التحليل ومنهم من وصل إلى أبواب مسدودة .

فالمنتظر من النقد العربي المعاصر هو التأسيس "لخطاب عربي يعبر عن مشروع ثقافة عربية معاصرة فكرا ونقدا وفلسفة وإبداعا.."[26] ، كما أنه يفترض به أن "يتحرك الآن في داخل أفضية متعددة ومختلفة، تهدف إلى استعادة التراث وإحيائه أو بعثه واستلهامه وتمثله وتبنيه على نحو نقدي "[27].

إن النقد العربي اليوم عليه أن يعلم بأن المناهج النقدية الغربية المعاصرة فرضتها ظروف محددة عاشتها المجتمعات الأوربية وغيرها، لأن كل تغير في مجال الفكر والفن لا يحدث بمعزل عن القوى الأخرى الفعالة في المجتمع.

ولهذا كانت ولادة هذه المناهج الغربية وتطورها يحدث بصورة طبيعية، ولما عمد النقد العربي إلى نقل هذه الاتجاهات دون تأمين و تعبيد الطريق وتوفير وسط مناسب لها بل دون مراعاة طبيعة لغتنا العربية و تراثنا وحتى عقائدنا ،اصطدم النقاد بنفور القارئ العربي و حتى طلاب الجامعة من هذه المناهج و التيارات لأنها لا تناسب لغته ولا فكره و لا خلفياته التاريخية و الدينية والعقائدية ، فاعتمدت الدراسات في هذا المجال على التنظير لهذه المناهج وتقعيدها وعمدنا إلى اقحامها في نصوصنا وتحليلاتنا لتراثنا فأضرت أكثر مما نفعت، و يظهر ذلك في اضطراب و تردد النقاد العرب على ضبط مصطلحات هذه المناهج و كثرة الخلاف حول استعمال هذه المصطلحات، مما يشتت ذهن الباحث العربي، يقول شكري عياد: "و نحن نعترف دائما بأننا لن نستطيع فهم القديم كما يتاح لنا فهمه اليوم إلا إذا نظرنا إليه بعيون معاصرة ولا يقتصر ذلك على الوعي بمشكلات الحاضر و مطالبه و لكنه يتضمن استخدام وسائل الفكر المعاصر أيضا.."[28] .

فالواجب إعادة النظر في توظيف هذه المناهج وللمساهمة في بناء نقد عربي معاصر منفتح على الآخر له مرجعيته التي تمنعه من التميع والاغتراب، وذلك بإعادة النظر في جملة من النقاط والمبادئ الأساسية والتي نجملها في الآتي:

- مراجعة نقدية شاملة ومستمرة تعلن الحوار العقلاني بديلا لصراع يلغي الآخر.
- المراجعة النقدية استجابة لظواهر جديدة.
- المراجعة النقدية هي استراتيجية مرحلة راهنة.
- على الناقد العربي أن يتأمل علاقته بالمناهج الغربية ويقومها بحيث "يتحول النقد إلى جزء من بنيته ويتحول ببنيته نحو تحرير الإنتاج المعرفي والنقدي والإبداعي من كل سلطة خارجية ..."[29]

وقد حاول بعض النقاد العرب إذن في اتصالهم بالثقافة الغربية وبهذه المناهج بذل جهودهم في تطوير التراث، محاولين إيجاد تواصل مع القديم و الجديد، أو إعادة قراءة هذا التراث من جديد من خلال هده المناهج وربما قد نجحوا نسبيا وربما فشلوا كليا أو وصلوا إلى الأبواب المسدودة –فإن كان كذلك علينا إعادة حساب أوراقنا من جديد وأن نجد مناهج جديدة توافق و تلائم اللغة العربية وعلومها فهي تحمل بين طياتها مناهجها وبالتالي مناهج التراث .

خلاصة القول أن الأدب والنقد العربي الحديث قد كان موقفه متضاربا تجاه المناهج الغربية في بداية تشكلها وذلك نظرا لعدم وضوح الرؤية لديه وللمقاومة التي كان يلقاها تطبيق هذه المناهج من طرف المحافظين والحامين للتراث، غير أن هذا لم يمنع بعض المتقدمين من استقدام بعض الأساليب وتطبيقها على التراث العربي كتجربة طه حسين وبعض التجارب المتفرقة والتي استعاضت عن المنهج باستخدام بعض أساليبه وأدواته، غير أن النقد العربي المعاصر وخاصة بعد ظهور بعض الدراسات، والتي حاولت نقل هذه المناهج إلى مجال استعمال الناقد العربي خصوصا المتأخرة منها ،كمحاولة عبد الله محمد الغدامي في كتابه "الخطيئة والتكفير "[30] وفي كتابه "القصيدة والنص المضاد" الذي يعرب فيه عن أسباب تبنيه للتفكيك، وكيف تساعدنا القراءة التشريحية على سبر أغوار النص الأدبي "إنها آلية بتوضيح حقيقة الكتابة ولإبراز جمالية صحتها كما تبين أصالتها والإبداع فيها من الانتحال والتقليد"[31].

غير أن جل من اتخذوا من إستراتيجية التفكيك دعامة منهجية في التأسيس لمقولات نقدية ومنهم الغذامي وكذلك عبد الملك مرتاض وبسام قطوس يصرحون ويعترفون بأزمة أو قصور المقاربة التفكيكية.

وقد هاجم عبد العزيز حمودة في كتابه "المرايا المحدبة والمرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية" كل النقاد العرب على أنهم استعاروا هذه المناهج من النقد الغربي الذي يختلف في كل شيء عن الحياة العربية، بل ويعاكسها وحاولوا تطبيقها كما هي على النصوص العربية الناشئة في بيئة عربية فأدى بهم ذلك إلى العيش الذريع، وقد أعطى نوعا من البديل في كتابه الثاني "المرايا المقعرة" بالرجوع إلى تنظيرات العرب القدامى وآرائهم اللغوية والأدبية، وحتى الدراسات العربية التفكيكية لا تزال في مهدها الأول، لأنها اكتفت برصد الملامح النظرية في أطرها الغربية و لم تنفذ إلى الجانب الجمالي للنص الأدبي.

هوامش البحث :

1 – المدخل إلى مناهج النقد المعاصر –د–بسام قطوس –الطبعة 1–2006 دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ص11–12.

2 – المرجع نفسه ص 12.

3 – رحلة البحث عن النص في الدراسات اللسانية الغربية –د.بشير ابرير منشورات اتحاد كتاب الجزائريين .ط2009/1ص49.

4 – المرجع نفسه ص 49–50.

5 – المرجع نفسه ص53–54.

6 – المرجع نفسه ص54.

7 – المدخل الى مناهج النقد المعاصر، بسام قطوس– ص22.

8 – مناهج النقد المعاصر –صلاح فضل–اطلس النشر و الانتاج الاعلامي –ط5–2005–ص97.

9 – المرجع نفسه ص97.

10 – مصطلح مناهج القراءة أطلقه د–بسام قطوس موازيا للمناهج النقدية الأخرى .

11 – رحلة مع النقد الأدبي .د.فخري الخضراوي ص 39–رسالة ماجستير.

12 – النقد–شوقي ضيف دار المعارف –ط5–ص8

13 – انظر كتاب البلاغة تاريخ وتطور لشوقي ضيف.

14 – البلاغة تاريخ و تطور –شوقي ضيف ص 376.

15 – مناهج النقد المعاصر –صلاح فضل ص121.

16 – المرجع نفسه ص 121.

17 – المرجع نفسه ص122.

18 – المرجع نفسه ص123.

19 – المرجع نفسه ص124.

20 – مناهج النقد المعاصر –صلاح فضل ص 128.

21 – مناهج النقد المعاصر –صلاح فضل–ص 133

22 – المرجع نفسه ص134.

23 – عصر ابنيوية –1985–جابر عصفور.

24 – رسالة في الطريق الى ثقافتنا –محمود شاكر ص 06(مقدمة كتاب المتنبي).

25 – للاطلاع أكثر ارجع الى كتابي : المتنبي –رسالة الى ثقافتنا –للشيخ محمود شاكر.

26 – النقد والخطاب محاولة قراءة في مراجعة نقدية عربية معاصرة – مصطفى خضر – دراسة ، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص14.

27 – المرجع نفسه.

28 – المذاهب الادبية و النقدية عند العرب و الغربيين –شكري عياد–الكويت–عالم المعرفة.

29 – النقد والخطاب محاولة قراءة في مراجعة نقدية عربية معاصرة – مصطفى خضر – دراسة ، ص11.

30 – عبد الله محمد الغدامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، النادي الأدبي الثقافي ، جدة، السعودية ، ط01، 1985.

31 – عبد الله محمد الغدامي ، القصيدة والنص المضاد– المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ، ط01، 1994 ، ص81.